

العناصر المعمارية المبتكرة في قصر أشير الأثري

د. عقاب محمد الطيب
أستاذ محاضر معهد الآثار
جامعة الجزائر

إن ما يسجل للفاطميين في مجال الأعمال الحضارية عامة، والعمرانية خاصة، الاعتراف بالجميل لكل من ساعدهم في تثبيت أقدامهم بالمغرب الإسلامي، خاصة سكان المغرب الأوسط (الجزائر حاليا). فبمجرد أن استقر بهم المقام بعاصمتهم الأولى في المغرب الأدنى (تونس حاليا) حتى سارعوا إلى تلبية رغبة العائلة الحاكمة من صنهاجة لتأسيس مدينة تكون كمدن العواصم المعروفة بالمغرب كله؛ مثل مراکش وتلمسان، خاصة أنهم، أي أسياة صنهاجة خبر وفنون الحرب وبرعوا فيها، وبدأوا يتكيفون مع الجو المدين، لاحتكاكهم بالفاطميين، وأنسوا في أنفسهم قدرتهم على تسيير دواليب الحكم، خاصة وأن الأوضاع السياسية تغيرت وظهرت أجواء أخرى وجب ترسيمها بين الناس، زادهم ذلك إقداما على تأسيس الدولة- النظام الإسلامي السوي-فضلا عن ضرورة بثه بين الناس بأحلى صورة وأوضحها.

تأسيس مدينة أشير:

بالرغم من اتفاق جل المؤرخين على تحديد تاريخ بناء مدينة أشير في حدود سنة 324هـ/935م، على يد القائد الصنهاجي زيري بن مناد، بمساعدة الحاكم الفاطمي القائم بن المهدي، غير أن هناك بعض التعارض في التاريخ وفي المكان أيضا لن بعض الأوصاف المقدمة من بعض المصادر التاريخية لا تطابق مع الموقع الحالي، خاصة بالنسبة للمظهر الطبوغرافي والتكوين الطبيعي، كما تضيف بعض المصادر بأن الموقع كان ما هو لا بشريحة من العناصر المتصفة بالعنف والشدة (ابن خلدون/ عن النويري ج 1 الملحق ص. 489)، وأشار على هذا أيضا صاحب البيان/ البكري/ ص. 126). وقد يصعب على الباحث التوفيق بين النصوص، فأشير أو (يشير) أو حتى قصر المنية البعيد عن أشير الحالي بحوالي سبعة كلم.

ويزداد الباحث تشكيكا في الموضوع حيث يقف على نص البكري الذي يحدد فهم هذا الاضطراب في التاريخ إلى محاولة استكمال الأعمال الإنشائية حول المدينة، ولكن ذلك لا يتطلب فترة طويلة، إذ وصلت إلى أربعين أو أكثر، اللهم إذا كانت الأحداث التاريخية تتكرر حيث تكرر معها إعادة البناء وحتى ربما لتمديد العمران إلى ما وراء أشير نفسها، مثلما هو الحال بالنسبة لقصر منزه بنت السلطان (المنية) المقابل لأشير نفسها.

كما يرجع غموض تأسيس أشير إلى ما أورده ابن الأثير، بأن أشير حملت-أيضا-اسم تلمسان لمشاركة جالية من تلمسان في بنائها.

ويمتاز وقع أشير والمواقع المجاورة له بتوسطه للمغرب الأوسط، وكأن الزيريين استأنسوا في أنفسهم القوة لبسط نفوذهم على كل المغرب الأوسط، أو على الأقل السعي لرسم خطط تسمح لهم بالتكيف مع القوى الفاعلة في المنطقة. فمدينة أشير غير بعيدة عن جزائر بني مزغنة شمالا، وهي أيضا من جهة الشرق قريبة من المسيلة وما جاورها من الحواضر، وإلى الغرب على محورا تقريبا تيهرت إلى تلمسان، وإلى الجنوب والجنوب الغربي هناك كثير م الممرات المؤدية إلى سجلماصة مرورا على مدينة الأغواط وعين الصفراء، الأمر الذي جعل أشير على اتصال قوي مع القوى الاقتصادية والمحاور المذكورة، كما يقوم شاهدا على رغبة الحكام في توسيع أفق علاقاتهم مع كل الحواضر بمن فيها التي على المنطقة الشمالية أي خارج الحوض المتوسط (المقدسي/أحسن التقاسيم/29 و49).

ويمكن تقدير ارتفاع مدينة أشير عن سطح البحر بما يقارب ألف متر، مما جعل الجغرافيين ينعنونها بالحصن المنيع، فهي في الواقع مثل كالمدن المشيدة في المغرب الكبير في مشرفة على السهوب الممتدة حولها (مارسيه/أبحاث أثرية:أشير/المجلة الإفريقية/1922/21...).

كما تمتاز أشير بمساحتها الاستطالية، فهي على سفح شبه مائل، على جانبيها خانقان، عديمي الغور ومع ذلك أحيطت بجدار منيع واضح المعالم، مدعم بدعامات قوية متساوية الأبعاد فيما بينها، وواضح أن ما أحيط بالمدينة من السور يعد بدون شك-مركزا إداريا لحكام المدينة، كما يمكن أن يعزو إلى وجود جالية مستقدمة إليها من مختلف المناطق، حسبما أشارت إلى ذلك جل المصادر، وكذلك استنادا إلى ما عثر فيها على كثير من الشفق الفخارية والخزفية المعالجة بأنماط متنوعة من الزخارف الفنية المتطورة جدا، كتلك الحاملة لرموز الحياة الشرقية والمطابقة مع التي صنعت في عاصمة الفاطميين الأولى.

مكونات القصر:

يعرف القصر بمؤسسة الأول: زيري، وهو يقوم على مساحة مستطيلة (72م في 40م)، بني على نمط التماثل والتناظر، أي أن قسميه متطابقين تماما في الشكل والمساحة وعدد الوحدات المعمارية القائمة على الحامل والمحمول، وعلى الانكسارات في ممراته التي تحد وتكسر المد البصري والتيار الهوائي معا وأيضا تكون بمثابة توزيع الثقل بين الوحدات، ولذلك يتفهم الشكل الاستطالي للوحدات مع ضيقها وصغرها.

يتكون القصر، معماريا، من جناحين متماثلين تمام التماثل، وحتى الجناح الواحد منه يتركب من قسمين قريبي التماثل. وهي بدون شك غرفة التشريفات. يمتاز المدخل بمقدم بارز عن جدار أو محيط القصر مكون من إيوانين للحراس، تليها غرتان مستطيلتان، خافهما وحدتان أخريان؛ إحدهما بباب واسع، والأخرى بباب ضيق، تؤديان إلى رواق معمد بأعمدة ضخمة مرتكزة بدعامة مستديرة كبيرة ذات حلقات متراكبة بين بارزة وغائرة على نمط التراجع أو ما يعرف بالضمور والانتفاخ، متوجة بتيجان كبيرة مناسبة

لقطر الأعمدة وقواعدها، مع الإشارة إلى أن التيجان تميل إلى النمط الكورنيثي . زخارفها أوراق فصية محورة إلى واحد (أي التاج) منها نحتت على بدنه أشكال شبيهة بالمقرنصات والرواق مطل على وسط القصر الواسع، يتصل بغرفة التشريفات الممتد مقدمتها على طول باحة القصر تقريبا إذ ينتهي طرفها بإقامة غرفتين مفتوحتين على الباحة تكون بمثابة المحرسين للغرفة وللغرفة إيوان غائر بشكل متعامد مع التدرج المتعاقد أمام ركني إيوان صدر الغرفة .

أما الترتيب المعماري لأحد جناحي القصر فقد قسم إلى قسمين. أولهما يتضمن وحدات معمارية ممثلة في غرف عديدة مركبة على صفين، صف من الغرف الأمامية متصلة بالباحة السماوية للقصر اثنتان متصلتان ببعضهما ومتشابهتان في الشكل والحجم، واسعتان في الوسط، منتهيتان بإيوانين على طرفيهما، بينما الجزء المحاذي لهما يتضمن غرفة شبه مستطيلة بدون إيوان. وبجانبها وحدة مربعة وجدت بأرضيتها قنوات من الفخار، متصلة من الخارج من جهة وواصلة إلى باحة القصر عبر قناة بنائية عريضة نسبيا؛ مما يؤكد أن الغرفة كانت صهريجاً للمياه، خاصة وأن أرضية الغرفة ذات ملاط متبوع بطبقة ناعمة منعاً لرشح الماء/ ومن المفيد الإشارة أن مداخل الوحدات المذكورة مواجهة للباحة أو من المرور عليها كالغرفة الصغيرة.

وخلف الغرفة السابقة أنشئت أربع غرف على الجوانب بينما ترك الوسط منها كمرر يوصل إلى باحتين بينهما، غرة صغيرة؛ مدخلها من الباحة طبعاً. ويتوسط الغرفتين رواق، على جانبه بابان يتصلان دائماً بالباحة . وفي مقابل الباحتين وحدتان مختلفتان الحجم، فالوحدة الشمالية الصغيرة يربطها بغرفة أخرى صغيرة ممر، التي هي بمثابة حوض مائي. كانت المياه تأتيه من الينابيع في اتجاه الباحتين الأربع لوجود القنوات والسواقي، بينما في الجزء الجنوبي أنشئت غرفة مستطيلة بكامل عناصرها المعمارية من الإيوان المحوري على الباحة إلى الإيوانين الجانبيين لها، ومع ذلك تلاحظ الغرفة الصغيرة المعتبرة كحوض توصل المياه إلى الباحة المواجهة لها.

وللتذكير نكرر أن الجزء الموصوف هنا مطابق تماماً لمثيله الأخرى دون أي اختلاف يذكر بينهما وذا الطراز البنائي للقصور الملكية بدأ يظهر على عهد الأمويين في قصورهم المشيدة في كثير من المدن التي ترجع إلى عهدهم ثم تواصل مع ازدهار الحضارة الإسلامية على عهد العباسيين بالأخص. وبهذا الصدد يقودنا البحث إلى كيفية وصول مثل هذا النمط إلى المغرب الأوسط مع بداية القرن الرابع الهجري ولكن سرعان ما ندرك من خلال بعض المصادر أن الفاطميين أمدوا الزيريين بعمال مهرة في البناء وخاصة المهندس المشرف عليهم. وقد نقل ابن خلدون عن النويري أن مهندس أشير هو نفسه المهندس الذي بني قصر الحاكم الفاطمي القائم بالمهدية، ومع ذلك فالتصميم غير متشابه بينهما.

ومن المفيد التأكيد هنا أن أسوار القصر موحدة وليس هناك تفاوت بينهما سواء منها الخارجية أو التي شكلت الوحدات المعمارية، فمادة البناء فيه هي من الحجارة المعالجة لتسطيح وجهها الخارجي، حتى تكون المسافات والفواصل فيما بينهما متساوية وكذلك ليكون مقدار الملاط مساوياً لتثبيت الحجارة فيما

بينها وأيضاً ليظهر البناء بمستوى مستقيم في صفوفه المتراصة. وهو ما يسر عدم لجوء البناء إلى إضافة قطع الدبش قصد تسوية صفوف البناء.

وقد دعم سور القصر الخارجي بدعامات مكعبة متساوية قليلاً وبمسافات متساوية فيما بينها.

الآثار الفنية:

العناصر المعمارية:

لم يحتو قصر أشير على كثير من وسائل الدعم لوحداته المعمارية إلا في الرواق المشرف على الباحة الكبيرة للقصر، وتلك الوسائل التدعيمية مركبة بعناصر متعددة الأشكال؛ قاعدة مكعبة على شكل قرمة، فوقها بسطة مربعة (وسادة) متراجعة، حلقة مستديرة مع سمت الوسادة، فخوصرة غائرة ثم حلقة مستديرة سميكة ارتكز عليها عمود ضخم يصل طوله إلى أكثر من مترين. ويتشكل الرواق من تسعة أعمدة، موزعة فيما بينها على مسافات متساوية مقدرة بـ متر ونصف. ويدل حجمها الكبير والتخين على كبر القصر وسعته وأيضاً على علوه المبالغ فيه.

وتوجت الأعمدة بتيجان غير موحدة، وإن كان معظمها ذات زخارف مروحية مجردة مثناة إلى الأمام تغطي بعضها القرون المدببة، وتيجان أخرى ذات زخارف حبالية في شكل مثلث، بواسطة عرنوس مخروطي شكل ببدن مسطح، بينما نحتت قرون مدببة في الأركان.

غير أن أهم تاج يمكن التوقف عنده طويلاً، الذي نحتت على رقبته أشكال المقرنصات، أجمع جل الباحثين في تاريخ الفن الإسلامي بأنها ترجع إلى القرن الثاني عشر، وأن موطنها الأول المشرق الإسلامي، ولكن الصانع الزيري اهتدى إلى تشكيله في القرن العاشر ثم تواصل ظهوره فيما بعد بقليل بقلعة بني حماد مع بداية القرن الحادي عشر.

وفي هذا الصدد نود أن نبذل الغشاوة الضبابية التي يحملها بعض زملائنا الآثاريين بأن وسائل الدعم في قصر أشير رومانية أو بيزنطية، وهو ما تنفيه هذه الأشكال التي لم تظهر إلا في الفترة الإسلامية بالمغرب أولاً ثم في المشرق ثانياً، ولم نقف لها في الآثار القديمة. والمجال مفتوح في هذا الشأن. ومن وسائل التدعيم العثور على كابولي من الحجر الكلسي زخرفت جوانب برؤوس من القطط، وهو متوج الباب الحجري على امتداد الطنف البارز عن ساكف الباب المتدرج. كما عثر على شريط عريض من الحجر المصقول زخرف بالعقود المتشابكة، وهو عنصر غير مشاع إلا في إحدى القباب الأندلسية بقرطبة. ومن الصنائع الحجرية التي أنجزت بقصر أشير فسقية الماء ذات المظهر النجمي وهي التحفة المنجزة فيما بعد بقلعة بني حماد مما يعني أن اليد الفنية كانت متنقلة فيما بين المدن المغربية.

وأهم ما يشد الانتباه في قصر أشير بل وفي محيطه، ذلك الزخم الكبير من الخزف الدقيق الصنع، والمشعب بأنواع من الزخارف الفنية، التي طبعت تلك القطع المتناثرة. وهيكلها ذات طابع فاطمي، حسبما تواصل صنعه في القاهرة بعد تنقلهم إليها. وليس من نافلة القول إعادة ما قيل حول بروز بعض الملامح

الفنية لعناصر العمارة كان بالمغرب الأوسط بل أن ما كان في غيرها من البلدان كانت عناصر أخرى لم يستمر في صنعها، وإنما أصبحت عناصر المغرب الأوسط هي المتداولة في كثير من البلدان الشرقية وفي ذلك مجال للدراسة والبحث من أجل التدقيق.

البيبلوغرافيا:

- ابن خلدون العبر...، بيروت، 1960، ج2.
- البكري (أبو عبيد الله)، المسالك والممالك، الجزائر، 1913.
- الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، 1899.
- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الجزائر، 1950.
- رودى، آثار اشير، في المجلة الإفريقية، 1908 (بالفرنسية).
- قولفان، المغرب الأوسط في العهد الزييري، باريس، 1954 (بالفرنسية).

